ترجمات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

مغاربة في المدرسة العسكرية للمهندسين بمونبلييه
١٨٨٥ – ١٨٨٨م(١)

د. خالد جدي
أستاذ باحث في التاريخ المعاصر والراهن
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن زهر – المملكة المغربية

الدِّرَاسَةُ

Jacques CAILLÉ, «Les marocains à l'école du génie de Montpellier : 1885-1888», Hespéris, T. XLI, 1954, pp. 131-145.

تقتفي هذه الدراسة البدايات الأولى لمحاولة الإصلاح العسكري المغربي في زمن السلطان العلوي المولى الحسن الأول، نتيجة تصدع أسس الدولة المغربية التي ورثها السلطان المذكور، بعد صدمتي "إيسلي ١٨٤٤ و تطوان ١٨٥٩–١٩٦٠" ، التي حتمت عليه ارسال بعثات طلابية مغربية لفرنسا لدراسة الهندسة العسكرية، تتبع الباحث في هذه الدراسة النخب العسكرية المغربية التي حلت بفرنسا "مونبلييه" ، إنها رحلة توثق المسار الذي قطعه الشبان المغاربة لتلقي التكوينات العسكرية، وما واجهوه من مشاكل متعددة منها ما مرتبط باللغة، الثقافة، والعادات، ودرجة ذكاءهم، وخلصت دراسة جاك كايي على الرغم من الموارد المالية الضخمة المرصودة التي كان يدفعها مخزن المولى الحسن الأول للأكاديمية العسكرية الفرنسية بمونبلييه، وإضافة للجهد المبذول من طرف المؤطرين العسكريين الفرنسيين المسؤولين عن تدريب هؤلاء النخب المغربية في الميدان العسكري، والمهام الموكلة إليهم، ودقة برنامج الدراسة الذي تم وضعه لهم منذ وصولهم لفرنسا، إلا أن إقامة النخب العسكرية المغربية في مونبلييه لم تسفر عن نتائج تذكر، وأن المخزن الشريفي لم يربح الشيء الكثير منها .

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام الترجمة: ٢٤ يوليو ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ٢٦ أغسطس ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

معركة إيسلي؛ معركة تطوان؛ الإصلاح العسكري؛ المخزن؛ السلطان الحسن الأول

معرِّف الوثيقة الرقمي:

10.21608/KAN.2023.224862

الاستشهاد المرجعي بالترجمة:

جاك كايي."مغاربة في المدرسة العسكرية للمهندسين بمونبلييه ١٨٨٥ – ١٨٨٨م"، ترجمة: خالد جدي.- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة - العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ٢٤٠ – ٢٤٨.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: khalid.jeddi@outlook.fr
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان التَّارِيْخِية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

حقوق الملكية الفكرية والترجمة والنشر: حقوق الملكية الفكرية محفوظة للمؤلف. حقوق الترجمة العربية محفوظة © للباحث خالد جدي. المترجم والدورية غير مسئولان عن الآراء الواردة في النص الأصلي. النقل والاستشهاد وفق الأصول العلمية والقانونية المتعارف عليها. غير مسموح بإعادة نشر كامل نص الترجمة العربية إلا بموافقة المترجم.

مغاربه في المدرسة العسكرية

قضى السلطان مولاي الحسن الأول، معظم فترة حكمه متجولا، عبر المغرب على رأس قواته، وكان مهتما بالفن العسكري وسعى لتحسين قيمة جنوده. منذ سنة ١٨٧٨م، تم جلب بعثة من الضباط وضباط الصف الفرنسيين إلى البلاط الشريفي، حيث قاموا بتدريب رجال المدفعية والمشاة المغاربة. وأراد السلطان، بعد ذلك، إرسال بعض المغاربة لأوربا لتعليمهم المهارات العسكرية. في شهر غشت سنة ١٨٨٤م، أبلغ السلطان برغبته هاته، رئيس البعثة الفرنسية القائد لو فالوا (Le Vallois)؛ وقال إنه سيكون من حسن حظه، أن يتم تعيين الشبان، المتوجهين إلى فرنسا، ضمن فوج المدرسة العسكرية للمهندسين، لتلقي تعليمات خاصة حول هذا السلاح. تم إرسال الطلب على الفور، إلى وزارة الحرب الفرنسية، ولكن، كان لا بد من التوصل إلى اتفاق مع وزارة الشؤون الخارجية. علاوة على ذلك، تأخرت بعض المراسلات بشكل كبير؛ وهكذا، فإن رسالة من وزير الحرب، بتاريخ ١٥ أكتوبر سنة ١٨٨٤م، لم تصل إلى القائد "لو فالوا" حتى فبراير الثاني من العام التالي. ولم يتم التوصل إلى اتفاق إلا في ماي سنة ١٨٨٥م. وتقرر أن يتدرب اثنا عشر مغربيا في المدرسة العسكرية للمهندسين، في مونبلييه.

انطلق المتدربون من طنجة، في ٢٤ يونيو سنة ١٨٨٥م، على متن السفينة الحربية أريتوس (Aréthuse). تم وضعهم تحت سلطة المترجم البرتغالي ميغيل دي كاسترو (Miguel de Castro)، الذي يتحدث ويكتب اللغة الفرنسية بطلاقة. كما كانت السفينة نفسها تقل السفير المغربي عبد الملك بن علي، عامل وجدة إلى فرنسا، كان هذا الأخير، برفقة قاضي فاس، وابن الأخير، وخمسة قادة، وسكرتير، وعدد من الخدم، مهمتهم أن ينقلوا، للحكومة الفرنسية، أقوى ضمانات حسن النية، وصداقة السلطان. كما اضطر إلى تسوية بعض الخلافات المتعلقة بالحدود الجزائرية المغربية والاحتجاج على قضايا "المحميون والجنسيات الأوربية"، التي كان من السهل منحها، في هذه الفترة للكل، في انتهاك لاتفاقية مدريد لسنة ١٨٨٠م. إلى جانب السفير المغربي، أخذ الوزير المفوض الفرنسي بطنجة، لورون شارل فيرو[٢] (Laurent - Charles Féraud)، مكانه أيضا على متن السفينة، وبمعيته ملحق بالسفارة، ومترجم تابع لمفوضيته.

أرست سفينة أريطوس (Aréthuse) في ميناء طولون، في ٢٧ يونيو، بينما توجه السيد فيرو والسفير المغربي وحاشيته إلى باريس، وسلك الطلبة المغاربة الطريق إلى مونبلييه، تحت إشراف كاسترو. وصلوا وجهتهم في ٢٨ يونيو، على الساعة الرابعة وخمس عشرة دقيقة مساء؛ واستقبلهم العقيد ريوندیل (Riondel)، من مدرسة الهندسة العسكرية[٣] (2e régiment du génie)، على رصيف المحطة مع عدد من ضباطه، وصاحبهم إلى ثكنة المهندسين، حيث تم اتخاذ الإجراءات اللازمة لإيوائهم.

هناك القليل من المعلومات عن أصل وعائلات هؤلاء المغاربة. لكن، كان هناك خمسة طلبة بينهم: محمد بن عبد الرحمن، ومحمد بن سعيد، والعلام، وصلاح بن محمد، وعلال بن محمد. وكان هذا الأخير، ذا بشرة سوداء داكنة، ربما، كان ينحدر من عبيد البخاري، أما الأول، فقد كان نجل المنشق الفرنسي، عبد الرحمن دسولتي، القائد الكبير السابق للمدفعية في المغرب، الذي توفي في فاس سنة ١٨٨١م. أما السبعة الآخرون وهم: العربي بن عبد السلام، محمد الزعواني، عمر، محمد حساني، أحمد الكلي، محمد بن دحمان، ومحمد الهواري. لقد قدم العربي بن عبد السلام من مازاغان (الجديدة)، والزعواني، والهواري من آسفي، وأحمد الكلي، ومحمد بن دحمان من تطوان. هذان الأخيران، كانا يعملان في السابق صانعي أحذية. فلا يبدو، أن تعيين هؤلاء الشباب قد تم بما يكفي من التبصر اللازم.

لكن، كان من غير المعقول ترك هؤلاء المغاربة، وحدهم، في بلد أجنبي، لا يتحدثون لغته، خاصة مع أولئك الذين سوف يعلمونهم، وكانوا لا يعرفون شيئا عن عاداتهم المغربية. من هنا ضرورة أن يرافقهم رجل جاد، يعرف الفرنسية جيدا، ومن الأنسب أن يكون بمثابة مرشد لهم. ميغيل دي كاسترو، القنصل البرتغالي، السابق في إحدى المدن الواقعة على الساحل الأطلسي للمغرب، اعتنق الديانة الإسلامية، من أجل امرأة مغربية، لكنها، تركته لاحقا من أجل رجل فرنسي، يعمل في المفوضية الفرنسية، لذلك ذهب هذا البرتغالي ليعيش في البلاط الشريفي وكان يعيش حياة حزينة، هناك. في سنة ١٨٧٨م قدم خدمة جليلة لأول رئيس للعمليات العسكرية الفرنسية بالمغرب، الكابتن جول إيركمان[٤] (Jules Erckmann)،

وأظهر عدم الاهتمام، الذي لم يكن المواطن الفرنسي معتادًا عليه، في البيئة التي عاش فيها بعد ذلك.

كان اختيار الحكومة الشريفة موفقا. حيث عمل "كاسترو"، بكل تفان في مهمته. تابع عن كثب، نشاط أولئك الذين كان مسؤولا عن تقديم المشورة لهم، واعتنى بهم كثيرا، وظل على إطلاع دائم بمجريات حياتهم وعملهم، سواء بحضور المخزن، أو وزير فرنسا المفوض في طنجة. ولم يتردد، إذا لزم الأمر، في بيان العيوب التي يرتكبها هؤلاء الشباب، ومطالبته بالعقوبات اللازمة تجاههم. وتشهد مراسلاته على الأمانة التي كان يؤدي بها واجباته. بعد أكثر من عامين قضاهما في مونبلييه، طلب الإذن، الذي مُنح له، بالعودة إلى المغرب، لأن المغاربة، كما قال، تعلموا الفرنسية، ويمكنهم الاستغناء عن حضوره. في الواقع، لم يكن ينسجما مع العقيد الجديد[٥]، قائد المدرسة العسكرية للمهندسين، كما عانى عدم تقدير خدماته.

تم إيواء الشباب في القلعة، أي، في ثكنات المدرسة الهندسية، حيث كان لكاسترو غرفة منفصلة، ومؤثثة باعتباره مساعدا لهم. وكان عليهم أن يدفعوا من رواتبهم، مقابل الإضاءة، والتدفئة في الغرف المخصصة لهم؛ غير أن المصابيح والمواقد الضرورية، وباقي المستلزمات وُضعت تحت تصرفهم. وفقد كان عليهم تعويض الضرر، الذي يرتكبونه. في البداية، كان يتم إطعامهم في المقصف، كضباط الصف، وبمعدل فرنك واحد في اليوم. وهو المبلغ الذي يخصم من رواتبهم. لكن، سرعان ما طالبوا بإعداد وجباتهم بأنفسهم، وهو الطلب الذي منح لهم.

كان إيجاد حل لقضية ملابسهم من أكثر الصعوبات، وأدى ذلك إلى مراسلات عديدة بين المندوب الفرنسي، في المغرب، والعقيد ريوندیل وكاسترو. كان الشباب المغاربة قد وصلوا فرنسا، وهم يرتدون ملابس مغربية، وكان الأمر غير مألوف، على أرض التدريب، داخل المدرسة العسكرية الفرنسية. كما قام العقيد الريوندیل، على الفور بتسليم كل منهم حاجياته من متجر المدرسة وهي عبارة عن: بلوزة من الكتان بسعر ٣,١٢ فرنكات، سراويل الكتان بسعر ٣,٩٠ فرنكات، زوج من الأحذية بسعر٧,٧٧فرنكات، وبلغ مجموع المصاريف ١٧٦,٠٤ فرنك؛ وهو المبلغ، الذي تم خصمه، أولاً، من رواتب الأطراف المعنية، ليتم تعويضه، من قبل المخزن، في شهر فبراير سنة ١٨٨٦.

تآكلت ملابس الكتان، بسرعة، كذلك الشأن بالنسبة للملابس المغربية، لم تكن كافية لموسم الشتاء في مونبلييه. في السنة الأولى، من إقامة الطلبة، أعار الفوج للمتدربين معاطف قديمة، لكن العقيد ريوندیل اهتم، في العام التالي، بتزويدهم بملابس لائقة ومريحة. اقترح العقيد ريوندیل على فيرو في ٧يناير١٨٨٦م، ملابس بدت له مناسبة، وأكثر اقتصادا لأشهر الشتاء، وهي كالتالي: سراويل بأحزمة أو بدونها، بسعر ١٢ فرنك، وسترة بسعر ١٣فرنك، وزوج من الأحذية بسعر ٨٠ فرنك، وزوج من الخفاف الجلدية بسعر ٣,٤٠ فرنكات، مما جعل إجمالي ثمن الملابس العسكرية يتراوح ما بين ٣٥ و٤٠ فرنكا لكل فرد. إضافة إلى ذلك، كان من الضروري توفير معاطف بشكل لائق بسعر ٢٧ فرنكات لكل متدرب. وبعد التفكير في إحضار ملابس مغربية من طنجة، كان الشباب طوال فترة إقامتهم في فرنسا يرتدون ملابس المهندسين، باستثناء الطربوش الفرنسي، الذي تم تعويضه بطربوش مغربي. ولتسوية المصاريف، دفع المخزن رقمًا معينًا من الفواتير التي ارتفعت قيمتها بشكل خاص إلى ٢٩٠,٣٧ فرنكات سنة ١٨٨٦م، ثم ٥٣٥,١٠ فرنكات للسنة الموالية، وتتعلق هذه الفواتير بالمعاطف، والسراويل، وسترات القماش، والأحذية والخفاف، وقمصان الكتان. كما أمر السلطان بدفع مبلغ يومي قدره ٢ فرنك، لكل متدرب، وتعويض قدره ٦ فرنكات يوميا لكاسترو. وتم الاتفاق على إرسال المبالغ اللازمة مقدما كل ستة أشهر، في ٢٥ من يونيو، و٢٥ من دجنبر من كل سنة. كان من المقرر أن يقوم السفير عبد الملك، الذي تلقى أموالاً من المخزن، بتسديد الدفعة الأولى، لكنه، وجد نفسه مضطرًا إلى تغطية نفقات غير متوقعة، لدرجة أنه لم يدفع المبلغ المستحق إلا في بداية غشت سنة ١٨٨٥م، بعد عودته إلى طنجة، لم يفشل العقيد ريوندیل والمترجم كاسترو في تذكير الحكومة الشريفة، قبل عدة أشهر، بتاريخ كل موعد نهائي؛ ومع ذلك، فإن هذا الاحتياط لم يمنع بعض التأخير. تم تسليم الأموال، من قبل المخزن، إلى المفوضية الفرنسية في طنجة؛ هذه الأخيرة أرسلتها إلى وزارة الحرب في باريس، والتي أحالتها إلى العقيد قائد مدرسة الهندسة العسكرية. بناء على نصيحة فيرو، تم دفع الرواتب لأولئك المعنيين، في نهاية كل أسبوع، وليس كل شهر، كما كان مقررًا.

لم يمر شهر على استقرار خبراء المتفجرات، المغاربة الشباب، في فرنسا، حتى زارهم السفير المغربي عبد الملك، الذي كان عائدا إلى الإمبراطورية الشريفة. عامل وجدة ورفقاءه في الرحلة، وبمساعدة فيرو، حلوا بمونبلييه، يوم الاثنين ٢٠ يوليو ١٨٨٥م، على الساعة ١٠ و٥٣ دقيقة صباحًا.

كانت جميع سلطات المدينة في انتظارهم داخل محطة السفر: وضمن المستقبلين، هناك السيد المحافظ، والأمين العام، ورئيس البلدية ونائبان له، والقائد العام لفيلق الجيش السادس عشر، والمفتش العام لقوات الدرك، والمراقب العسكري، العقيد ريونديل، والعديد من الضباط من رتب متفاوتة، وانضم إليهم المغاربة المتدربون الإثنا عشر، بأوامر من ملازم المهندسين روجر (Hoger). بعد تبادل التحيات المعتادة، تم نقل الضيوف إلى فندق نوفي (Nevet)، وفي مساء اليوم نفسه، تم تقديم العشاء والأغطية لخمسة وعشرين عضوا من البعثة. لقد مكث السفير المغربي يومين ونصفا في مونبلييه، وخلالهما، تحدث مطولاً مع مواطنيه الشباب. ومن ناحية أخرى، ناقش برنامج تدريبهم مع العقيد ريونديل. وتم اصطحابه إلى مبنى داخل المدرسة، حيث زار، بالتفصيل، نظام المتفجرات المضاد بأكمله. كما حضر مظاهرات وتمارين بالديناميت، بما في ذلك تدمير جسر فوق نهر ليز (Lez). أبدى السفير، عبد الملك، اهتمامًا كبيرًا بهذه العمليات، وقدم تحياته للعقيد، ومنحه مكافأة كبيرة مقابل ذلك. "لإثبات رضا الكولونيل عن رجال الفوج". تم استخدام هذا المبلغ، من ناحية، لتقديم حصة إضافية من النبيذ للفرنسيين، ولتحسين الطعام العادي للمغاربة من ناحية أخرى. واستقل السفير المغربي ومرافقوه القطار يوم ٢٢ يونيو، إلى مرسيليا، حيث أعادتهم السفينة "الأريتوس" إلى طنجة.

وبناءً على الرغبة التي عبر عنها المخزن، كان على الشباب المغربي الاكتفاء بتعلم ممارسة الأعمال الهندسية الخاصة، دون الانخراط في "مدرسة العسكرية"، لهذا السبب، ومنذ وصولهم، أُجبروا على القيام بالتدريبات نفسها على الساحة، مثل خبراء المتفجرات الفرنسيين، والقيام بالتحصينات الميدانية، وأسلوب الحصار، والعمل في الجسور، والمناجم، وإشعال النار بالبارود، واستخدام الديناميت. كما شاركوا في حرب المتفجرات، التي قام بها فوج المدرسة العسكرية. ولكن، اتضح على الفور أن تعليمًا نظريًا معينًا كان ضروريا، بالنسبة لهم، في الوقت نفسه كإرشاد عملي. كان المتدربون يوميا يزاولون مهامهم الصباحية والمسائية باستثناء يومي الجمعة والأحد، وعند سوء أحوال الطقس صباحا أو مساء يخصص الوقت لتعلم اللغة الفرنسية، ودراسة المفردات، والقراءة، والكتابة، والحساب، والنظام المتري والهندسة العملية. تم إعطاء التعليمات، من قبل رقيب، يساعده المترجم كاسترو. فمنذ شهر ماي سنة ١٨٨٦م، لم يكن هناك سوى عشرة مغاربة، لأن اثنين منهما قد أعيدا إلى المغرب. تم تقسيمهم على ثلاث مجموعات. الأولى تتألف من خمسة طلبة، والتي عمل كاسترو كمدرب لها. وشكل عمر ومحمد حساني الثانية، تحت قيادة رقيب. والثالثة، تضم كلا من محمد الهواري، وأحمد الكلي، ومحمد بن دحمان، عهد بها إلى أحد الخبراء ليرأسها.

كانت الجلسات المسائية، من حيث المبدأ، مخصصة للتداريب العملية، وخاصة تلك التي بدت أكثر فائدة للمغاربة. كان الهدف من هذه العمليات هو التدرب على المتفجرات النارية، وإطلاق نار، والتحصينات الميدانية، مثل تشييد الخنادق، والدفاعات الملحقة؛ تثبيت القوات العسكرية في الميدان: كنصب الخيام، وبناء الأكواخ...إلخ. صنع وتحضير مواد الحصار، الحواجز، الساحات. وتابع جميع المتدربين، لهذا الغرض، تكوينات بمدرسة الألعاب النارية، في لافليت (La Valette) مع الجنود الفرنسيين. بالإضافة إلى ذلك، قام الطلبة الخمسة بتدوين ملاحظاتهم، عقب كل جلسة، وكذا تدوين التفسيرات التي يقدمها الرقيب، وكتبوا مذكرات عن مختلف الأعمال المنجزة. وبناء على طلب بعض الطلبة المغاربة، سُمح لاثنين منهم مساء، يوم الجمعة، رغم أنه يوم عطلة، بمتابعة دروس التلغراف الجوي مع خبراء المتفجرات في المدرسة العسكرية.

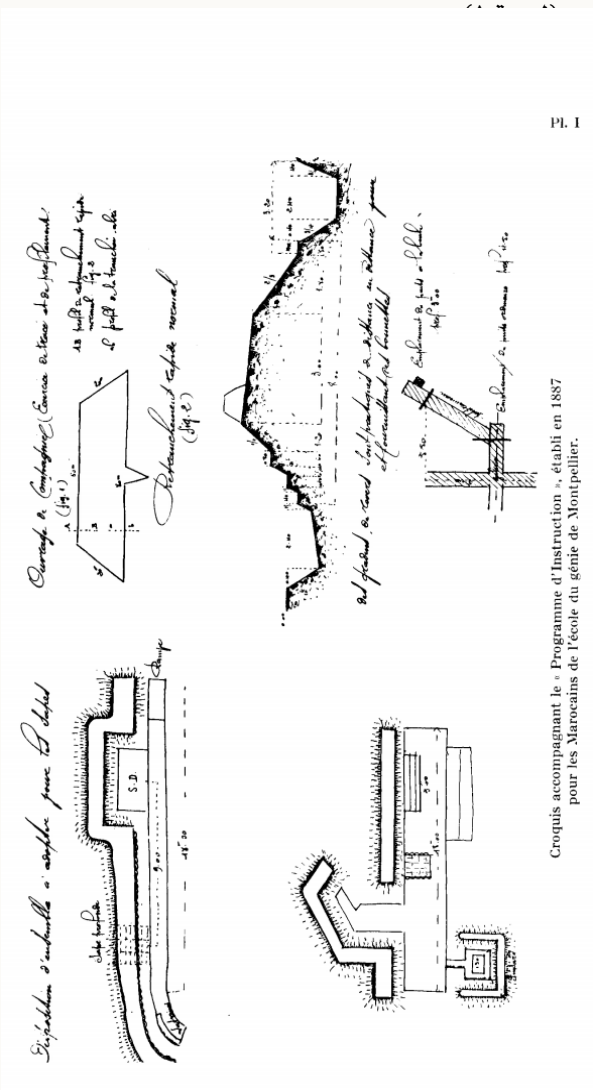

هذا البرنامج، الذي تم اتباعه في سنة ١٨٨٦م، تم تعديله، أو الزيادة فيه خلال السنة الموالية. منذ ذلك الحين، وجه الملازم التعليمات، بمساعدة رقيب، وخبير، والمترجم كاسترو، بتقسيم الطلبة المغاربة إلى مجموعتين فقط. الأولى ضمت أربعة طلبة هم: محمد بن عبد الرحمن، محمد بن سعيد، صلاح، العلام، والثانية ضمت كل من علال بن محمد، محمد حساني، عمر، محمد الهواري. ولم يتابع الطالبان المتبقيان، وهما أحمد الكلي، ومحمد بن دحمان، أي دورات، وقضيا كل وقتهما في العمل اليدوي مع ربان المدرسة العسكرية.

في جلسات التدريب النظرية، استمر تعليم اللغة الفرنسية للطلبة المغاربة، ولكن، مع إضافة دروس قواعد اللغة، ودروس المنطق، بالنسبة لأعضاء المجموعة الأولى، كانت دراسات الحساب والهندسة أكثر تقدما، حيث وصلت إلى خمسين درسًا، ودورات في علم الكون، والفيزياء، والكيمياء. على الرغم من أن مناهج هذه المواد، الأخيرة، لها طابع علمي معين. تم تعليم الطلبة المغاربة بعض المفاهيم حول الأرض، والقمر، والشمس، والكواكب، والنجوم، والكسوف، والأعمدة، والخرائط، والتوازي ... إلخ. بالإضافة إلى ذلك، تعلموا قواعد الجاذبية، ومبدأ أرخميدس، وتمدد الأجسام، وقياس، وكثافة السوائل، والمواد الصلبة، إلخ. كما تلقوا بعض المبادئ حول مقياس الحرارة، والبارومتر، والآلة الهوائية، والضغط الجوي، والمغناطيس، والكهرباء. وقد كان العديد منهم لا يزال يتعلم التلغراف، والهاتف، والأجهزة البصرية. وكانت مواد كل من: الماء والنيتروجين والكربون وثاني أكسيد الكربون والكبريت والفوسفور موضوع دروس الكيمياء.

كان التدريب العملي، أيضا، أكثر تطورًا بشكل ملحوظ، منذ بداية سنة ١٨٨٧م، كدراسة التحصينات الميدانية للسرية العسكرية المتضمنة لمظهر جانبي، مع تخطيط عمل هذه السرية، تم شرح للمتدربين المبادئ التي أدت إلى اعتماد أنواع مختلفة من هذه التعزيزات للمتدربين. وتم تقديم عرض بالتفصيل، عن كيف ينبغي ترتيب الدفاعات الملحقة أمام الخندق الخارجي، وكيفية صنع أغطية العشب، وحفر الخنادق المختلفة وقطع المدفعية الميدانية المدفونة. من أجل تثبيت القوات في الميدان العسكري، وتعلم الطلبة المغاربة كيفية حفر الآبار، بأنواعها المختلفة، وتنقية المياه. وكانت المناجم، وإشعال الحرائق، والحفر، والمتفجرات النارية، وصنع معدات الحصار موضوع دروس أكثر عددا، وأكثر شمولية، من العام السابق. تم تدريب الشباب المغاربة على عمل الخندق من جميع جوانبه: البسيط، والعميق، والمزدوج، والخندق الأرضي. لقد تدربوا على بناء أنواع مختلفة من الجسور وكذلك رصد الأحوال الجوية، وصنع العقد، والجلد، والحوامل السريعة، والبطيئة بالحبال، وجذوع الأشجار. كما تم تعليمهم صفات الطرق الجيدة وكيفية صيانتها. تم إعطاؤهم العديد من الدروس، حول السكك الحديدية، على الرغم من عدم وجود أي دروس في المغرب حتى الآن في هذا الميدان، فكانت هذه فرصة لاطلاعهم على محطة مونبلييه، وتم تخصيص كذلك، ست عشرة حصة لدراسة سطح الأرض، والتضاريس، قاموا خلالها برسم الخطوط المستقيمة، واستخدام البوصلة، واللوح الخشبي، وصنع المستويات.

وقاموا بزيارة جميع الأعمال الموجودة، بالفعل، بالمدرسة العسكرية.

لقد أدى الضباط، وضباط الصف الفرنسيون، دورهم كمدربين على أكمل وجه. احتفظ الرقيب، كل يوم بمراقبة اسمية، والإشارة إلى حالة المعلومات المناسبة التي تكشف درجة التدريس، والكفاءة، والذكاء لكل مغربي. من جهته، كان الملازم أول يرسم جدولًا موجزًا شهريًا، يطلع على النتائج التي تم الحصول عليها. بالإضافة إلى ذلك، أتاح الاستجواب المتكرر، للطلبة المغاربة، معرفة ما إذا كانت الأطراف المعنية قد فهمت العمل المطلوب منها، والقيام به، وما إذا كانوا قد استفادوا منه. كانت المذكرات تُسلم بانتظام إلى الوزير المفوض الفرنسي بطنجة. في البداية كانوا، جميعا، جيدين جدا. في التقرير الأول، الذي تم إعداده في نهاية سنة ١٨٨٥م، فلم يكن هناك متدرب تقل درجته عن ١٠ من ٢٠، وخمسة من الطلبة حصلوا على ١٥، والبعض الآخر ١٧، أو ١٨، أو ١٩. لكن، يبدو أن المدربين أظهروا بعد ذلك تساهلا كبيرا. في الواقع، يُظهر التقرير المصاحب لهذه الملاحظات أن ستة فقط من المغاربة، الاثني عشر أبدوا اهتماما حقيقيا بما تعلموه، لكن الستة الآخرين، رغم حسن النية التي يتمتعون بها في تعلمهم، يفتقرون، تماما، إلى التعليم الأساس، ومن المرجح أن لا يحرزوا أي تقدم. نتيجة لذلك، ففي ٧ يناير سنة ١٨٨٦م، اقترح العقيد ريونديل على فيرو إعادتهم إلى بلادهم، واستبدالهم بشباب أكثر قدرة، لكن، طلبه ظل دون نتيجة.

الملاحظات الأخرى، التي تم تقديمها لاحقا، تتوافق بشكل أفضل مع هذا التقدير. ففي ١ يوليوز سنة ١٨٨٦م، حصل ثلاثة مغاربة على درجات "ضعيف" و "ضعيف جدا"، في مختلف مواد برنامج العمل. وفي سنة ١٨٨٧م، اعتُبر أربعة من المغاربة من فئة "المتوسطين". ذكر كاسترو، في شتنبر، سنة ١٨٨٦م أن الطالب علال كان "ذا ذكاء منغلق وذاكرة تأبى التقدم، مستواه التعليمي كان هو نفسه عندما وصل". كما نصحه كاسترو بالعودة إلى المغرب لتجنب "تكاليف غير ضرورية لحكومته بسبب عجزه التعليمي". بدلاً من ذلك، اقترح كاسترو إعطائه تدريبًا عمليًا بسيطا كجندي مشاة، يمكنه، لا شك، من استيعابه، ويسمح له بتقديم بعض الخدمات في الإمبراطورية الشريفة. شابان آخران؛ أحمد الكلي، ومحمد بن دحمان كانا بليدين وأميين. زيادة على ذلك، كانا صانعي أحذية، حسب مهنتهم في المغرب، فبعد أن التحقا بالجيش منذ فترة قصيرة جدا. لا يمكنهما الاستفادة من التعليم النظري، ولا حتى من التعليم العملي. هذا هو السبب في أنهما عينا في ورشة، داخل المدرسة العسكرية للمهندسين، "حيث وجد أنفسهما يعملان في صيانة الأحزمة الجلدية"، ولكن، ليس من أجل هذا الغرض تم إرسالهما إلى كلية الهندسة، أصر العقيد ريونديل عدة مرات، ولكن بدون جدوى، على ضرورة استدعاء هذين الشابين.

من الواضح أن الافتقار المطلق للتمييز بين النخبة قد ساد اختيار المغاربة المرسلين إلى مونبلييه. ومع ذلك، فإن نصف أولئك الذين تم الاحتفاظ بهم، فقط، كانوا قادرين على متابعة التداريب التي أعطيت لهم، ورسم ملف شخصي لهم. لقد أشار المدربون بحق الطلبة المغاربة: "أنه لا نأخذ الأميين لتحويلهم إلى ضباط هندسة في غضون بضعة أشهر". كما أكد أحمد الكلي، ومحمد بن دحمان، أنهما تم تجنيدهما بقولهما "إنهما موجهان فقط لمهنة السراج". كان كاسترو محقا، تماما، في الاحتجاج على "سوء النية، وجهل الموظف المدني المغربي، الذي عين أفرادًا غير مؤهلين".

من ناحية أخرى، كان المرض يؤثر أحيانا، في تكوينات المتدربين. قضى محمد بن سعيد، في بداية سنة ١٨٨٦م، شهرين في المشفى. ومع ذلك، فإن ذكاءه وقابليته للتعلم، مكنتاه من تعويض التأخير الذي نتج عن انقطاعه عن الدراسة. وأمضى محمد الهواري، وقتا طويلا في المشفى، أكثر مما أمضاه في الثكنة العسكرية. ففي منتصف سنة ١٨٨٦م، وبناء على نصيحة الطبيب كان من اللازم إعفاؤه من كل التكوينات، وجميع الأعمال اليدوية؛ بسبب تكوينه الضعيف، وحالته الصحية المتدهورة؛ في الواقع، كان يعاني من قرحة حول المقعدة، مما تطلب علاجه بطريقة مستمرة. منذ ذلك الوقت، طلب كاسترو والعقيد ريونديل عودته إلى المغرب، وبعد وفاة هذا الأخير، قبل خليفته، العقيد شيري نفس الطلب. وكتب المترجم كاسترو إلى فيرو في ٦ يناير سنة ١٨٨٨م، أن الهواري يمر من حالة مرضية حرجة. لكنه قال، "كانت فكرته الثابتة هي العودة إلى بلاده، في أسرع وقت ممكن"؛ كما أن الهواري كان لديه رغبة جامحة من أجل قبول قرار إرجاعه إلى المغرب، بناء على شهادة الطبيب، وكان كاسترو قد وبخ الهواري على تجوله طوال اليوم، وأحيانا، حتى منتصف الليل، في

مونبلييه. وسلم العقيد شيري للوزير الفرنسي المفوض بطنجة شهادة طبية في ٧ يناير سنة ١٨٨٨م، مشيرا إلى أن المغربي الهواري، قدمها بسبب مرض في الصدر، لا يمكنه تحمل مناخ مونبلييه. وبالتالي، تمت إعادته إلى وطنه، بعد فترة وجيزة بموافقة المخزن.

ترك سلوك بعض المتدربين، في المدرسة العسكرية، العديد من التساؤلات. فكانوا يخضعون لضبط صارم، مثل الجنود الفرنسيين. وحكم على العديد من المغاربة بالسجن المخفف بتهمة التأخر في حضور نداء أسمائهم في المساء، أو بالخروج بملابس غير لائقة، أو الشجار المستمر، هذه العقوبات الأخيرة اعتبرت أقل خطورة، لكن، هناك سلوكات أكثر خطورة من السابق، فمثلاً، عوقب العربي بن عبد السلام مرتين، بثمانية أيام في حجز الشرطة بتهمة السكر، وضرب أحد رفاقه بعنف. ووقعت العقوبة نفسها على محمد الزواني للخطأ ذاته. علاوة على ذلك، في شهر فبراير سنة ١٨٨٦م، ارتكب العربي بن عبد السلام جنحة سرقة لصائغ في المدينة، وهو السيّد فيرسير (Vercier). استغل فرصة أنه كان يشتري ساعة، ليسرق سلسلة ساعات، وصدرية فضية، فسجنه العقيد على الفور في سجن الفرقة. بحلول الأول من أبريل سنة ١٨٨٦م، كان قد تعرض العربي بالفعل لأربعة أحكام بالسجن، مرتين بسبب عصيان الرقيب المسؤول عن التدريبات، ومرة واحدة بسبب التظاهر بالمرض، حتى لا يحضر جلسات العمل، ومرة بتهمة الاعتداء غير اللائق.

تقرر عودة الشابين إلى المغرب، اعتبارا من بداية أبريل سنة ١٨٨٦م، بالاتفاق الكامل مع المخزن. كان تدبير عودتهما ضروريًا. وبالفعل، في منتصف الشهر نفسه، تم سجن محمد الزعواني مرة أخرى، بتهمة السُكر، وإهانة بعض المستخدمين، وتعاطي المشروبات الكحولية في غرفته، وإثارة الشغب، وعصيان الرقيب المسؤول عن التحقيق. في ٦ ماي، نقل كاسترو المغربيين إلى مرسيليا، وفي اليوم التالي، صعدوا على متن سفينة من "شركة باكيه" (Paquet)، والتي هبطت بهم في طنجة. وعند الصعود إلى جانب السفينة، طلبا من المترجم أن يكتب رسالة موجزة نيابة عنهما، موجهة إلى فيرو، ناشداه فيها تساهله.

تصرف المتدربون التسعة الذين بقوا في المدرسة، بعد ذلك، بشكل مثالي، ولم يتم عقابهم إلا على التفاهات. لكن، هناك قضية واحدة جديرة بالذكر هنا. فقد كان أحد المتدربين المغاربة، وأفضلهم موهبة، وهو محمد بن عبد الرحمن، ابن منشق فرنسي. لم يكن يجهل أصله، وفي بداية سنة ١٨٨٨م، كانت لديه فكرة التقدم بطلب الحصول على الجنسية الفرنسية. كتب الضابط الفرنسي الذي أبلغه بنيته إلى النقيب إيركمان، وتواصل الأخير مع فيرو. اعتبر رئيس البعثة السابق هذا الطلب "غير لائق"، قال رئيس البعثة: «سيكون السلطان بالتأكيد غير راض للغاية، إذا كان قد أرسل طالبا مغربيا إلى فرنسا للتكوين العسكري ويستغل الفرصة لطلب الجنسية الفرنسية". حتى أن رئيس البعثة نصحه، بمنع تحقيق رغبة محمد بن عبد الرحمن، وإذا لزم الأمر، إعادة جميع المتدربين من مونبلييه إلى المغرب. لكن الطالب المغربي تخلى عن طلبه من دون اللجوء إلى هذا الإجراء.

لم يتم تحديد مدة إقامة المغاربة في فرنسا مسبقًا. اتفق السلطان، مولاي حسن، وفيرو، ببساطة على أن الشباب "لن يتركوا مدرسة العسكرية للهندسيين قبل أن يحصلوا على تعليم كامل إلى حد ما". في وقت مبكر من أكتوبر سنة ١٨٨٥م، بعد ثلاثة أشهر ونصف، فقط، من وصولهم، كتب كاسترو إلى فيرو عن عودتهم إلى الإمبراطورية الشريفة. وأجابه الوزير المفوض بطنجة أنه في الوقت الحالي ليس عليه أن يهتم بهذا السؤال، وسوف يجد الحل للأمر بنفسه مع العقيد ريونديل. وقدر الأخير أنه في يناير سنة ١٨٨٦م، سيتم الانتهاء من التدريب العسكري للمتدربين، وأنه يمكن، بعد ذلك، إعادتهم إلى وطنهم، في أكتوبر من السنة ذاتها. لكن، البرنامج الذي قدم لهم، يستهدف دراسة اللغة الفرنسية، التي لم يكونوا على دراية بها عندما أتوا إلى مونبلييه. فكان من المؤكد أن الموعد المحدد، في خريف سنة ١٨٨٦م، سيكون المتدربون بعيدين عن امتلاك المعرفة الكافية بناصية اللغة الفرنسية. حيث واجه العديد منهم صعوبات عويصة، كما قال كاسترو، "للتعرف على المصطلح الفرنسي السليم ". وعلق الوزير المفوض بطنجة، كذلك، "أن البعثة المغربية كانت تهدف أيضا إلى "ضرب عقول أعضائها بفكرة عظمة دولة وحضارة فرنسا". لذلك، كان من المناسب تمديد إقامتهم في مونبلييه.

ونتيجة لهذه الملاحظة، تم وضع برنامج أكثر تفصيلا، من الذي تحدثنا عنه سنة ١٨٨٧م. حتى أن العقيد ليوندل اقترح جعل المغاربة يؤدون، (بعض الخدمات العسكرية)،

بشكل عام. لكن اقتراحه قوبل بالرفض لأنه، أثناء زيارته لمونبلييه، أصر سفير السلطان على أن التعليمات التي أعطيت له. تتمثل في أن الطلبة المغاربة مرتبطون، حصريًا، بالعمل الهندسي.

كان المتدربون، في بداية سنة ١٨٨٨م، قد تلقوا العديد من التعلمات الكافية لهم، في هذا الشأن، وخلال شهر ماي من السنة نفسها، نصح فيرو الصدر الأعظم، المغربي، فضول غرنيط، أنه يرى من المناسب إعادة الاتصال بالشبان المتعلمين، واستبدالهم بشباب آخرين. علاوة على ذلك، في الوقت نفسه، تقريبا، لاحظ الضباط الفرنسيون بين الطلبة المغاربة "أعراض الحنين للوطن والإحباط"، مما أدى بهم إلى بعض التراخي في دراستهم. يمكن فهم هذه الحالة الذهنية، كون الطلبة المغاربة قد غادروا بلدهم منذ ثلاث سنوات، وكانوا يعيشون في بيئة مختلفة، تماما، عن بيئتهم. هذا هو السبب في كتابة القائد العام للفيلق السادس عشر بالجيش إلى فيرو، في ٢٧ يونيو سنة ١٨٨٨م، أنه بسبب الكفايات اللائقة التي حازها الطلبة المغاربة، "فقد حان الوقت لكي يجني السلطان ثمار نفقاته، ويملك الجنود القادرين على تقديم الخدمات له". أضاف إلى ذلك: فبتركهم لفترة أطول معناه، أن يجمعوا العادات المسيحية بالعادات الإسلامية. كما يمكنهم، بمجرد اعتيادهم على اللغة وضواحي مونبلييه، إنشاء خليط من الرذائل والعادات التحررية المرتبطة بالمجتمع الفرنسي. إذا كان الشكل الذي عبر فيه الجنرال عن نفسه مألوفًا بعض الشيء، لكن يجب أن ندرك أنه في الأساس كان على حق.

استغرق الأمر عدة أشهر، قبل التوصل إلى اتفاق مع المخزن، حول عودة الطلبة المغاربة، ففي دجنبر سنة ١٨٨٨م، غادر المغاربة التسعة الذين بقوا في مونبلييه المدينة، عرجوا على مرسيليا، وأعيدوا في السفينة البخارية باكيه (Paquet)، ووصلوا في ١٦ دجنبر إلى طنجة. رحب بهم نائب السلطان، محمد الطريس في المدينة، وفي اليوم الموالي، توجه بالشكر إلى القائم بأعمال بوتيرون (Boutiron)، لأن فيرو قد توفي في ١٩ نونبر الماضي. وأعرب ممثل مولاي حسن عن كل "الرضا الذي شعر به في مراقبة التطور الفكري والتعليمي الذي اكتسبه مواطنوه الشباب في فرنسا".

وكان الوزير الأعظم قد كتب إلى الوزير المفوض في طنجة، في نونبر سنة ١٨٨٨م، لإعطاء موافقته على مبدأ عودة المتدربين من مونبلييه إلى المغرب. لكنه، في الوقت نفسه، طلب بترك أربعة أو خمسة منهم لعدة أشهر أخرى في فرنسا، "حتى يتعلموا كيفية استخدام الضوء الكهربائي، ويتمكنوا من التحكم في الأجهزة الكهربائية، التي استوردها سلطان المغرب. كما أشار فضول غرنيط إلى أن هؤلاء الشباب الذين استقروا في فرنسا، لأكثر من ثلاث سنوات، ويتحدثون اللغة الفرنسية، يمكنهم اكتساب المعرفة اللازمة بسرعة. من ناحية أخرى، قال الوزير المغربي، بأن المهمة ستكون صعوبة بالنسبة لأولئك الذين سيحلون محلهم، والذين ليس لديهم معرفة باللغة الفرنسية. لقد جاء الطلب، متأخرا جدا، كون الطلبة المغاربة غادروا مدينة مونبلييه. لكن الحكومة المغربية استأنفت فكرتها في يناير، سنة ١٨٨٩م، وبناء على طلبها، أشار العقيد شيري إلى المتدربين الأربعة، الأكثر قدرة بين أولئك الذين كانوا في فرنسا. على الرغم من بحثنا، لم نعثر على أي وثيقة تسمح لنا بالقول إن هذا المشروع قد تم تنفيذه.

من ناحية أخرى، ففي شهر يونيو سنة ١٨٨٨م، كانت مسألة استبدال المغاربة، الذين كان تدريبهم على وشك الانتهاء، من قبل شباب آخرين، وعددهم هذه المرة خمسة عشر طالبًا، وبرفقة المترجم كاسترو مرة أخرى، كان من المخطط إرسالهم إلى فرساي بدل مونبلييه، حيث يتواجد فوج المدفعية، وفوج مهندسي الحامية؛ ليكون تعليمهم أكثر اكتمالا. إضافة إلى ذلك، فبدلا من "إقبارهم" في بلدة ريفية، كانوا سيجدون أنفسهم على أبواب باريس، ويمكنهم بالتالي التعرف على عاصمة فرنسا. كان لدى فيرو فكرة مطالبة الكابتن إيركمان بتوجيه التعليم العسكري لهؤلاء المتدربين المستقبليين. وبالفعل، فقد كتب فيرو إلى الرئيس السابق، لمهمة تكوين المهندسين المغاربة، ما يلي: " عندما علمت أن توجيه الشباب المغاربة على عمل القاذفات الحربية سيُعهد إليك، فإن السلطان سيشرع في إرسالهم". وافق إيركمان على الاقتراح، وكان وقتها في بلدة "لا فير" (La Fère)، في مقاطعة لين (Aisne)، ولكن، بناء على طلب وزارة الشؤون الخارجية، يمكن بسهولة نقلهم إلى فرساي، حيث فوج المدفعية الحادي عشر، الذي كان عقيده أيضًا أحد أصدقائه. وأشار فيرو إلى ضرورة إرسال شبان

أنيقين للغاية. ومما لا شك فيه أن السلطان لم يعين أبناء العائلات الكبيرة. ومع ذلك، سيكون من الضروري أن يتمتع أولئك الذين يختارهم بجاذبية معينة. وهذا كان شرطا أساسيا، من وجهة نظر التأثير، الذي سيتم تركه عند الجمهور أو عند الأشخاص الذين قد يتم تقديمهم لهم. وهذا الطلب الأخير لم يتحقق.

سيكون من المثير للاهتمام معرفة ما حدث فيما بعد للطلاب المغاربة، في مدرسة الهندسة في مونبلييه، في هذا الموضوع بالضبط، هناك رجل يدعى محمد بن عبد الرحمن الحاج المراكشي، ولد في مراكش في ٧ فبراير سنة ١٨٦٢م، حصل على الجنسية الفرنسية سنة ١٨٩٥م، تحت اسم دسولتي (Desaulty)، عندما تم الاعتراف به، كتاجر في لالة مغنية[٦]، هو على الأرجح واحد من المتدربين لسنة ١٨٨٥م، دخل لاحقا في خدمة المندوبية الفرنسية في طنجة[٧]. وتم إرساله إلى قنصلية مراكش حيث ظل، لبضعة أيام سنة ١٩١٢م، سجينا للهبة، بصحبة القنصل ميجريت (Maigret)، وعدد من الفرنسيين الآخرين[٨]. عن رفقائه لدينا فقط شهادة لامارتينير، السكرتير الأول للمفوضية الفرنسية في طنجة، في نهاية القرن التاسع عشر والذي كتب ما يلي: "عند عودتهم من فرنسا، سرعان ما استأنفوا السلوكات الضرورية للحفاظ على مكانتهم في الإمبراطورية الشريفة، التي ظلت متعصبة للغاية"[٩]. لذلك، يبدو أن إقامتهم في مونبلييه لم تسفر عن نتائج تذكر، وأن المخزن لم يربح الكثير منها.

لا يمكننا أن نلوم ضباط وضباط الصف المسؤولين عن تدريبهم. تدل المراسلات المتبادلة بين المندوبية الفرنسية، في المغرب، والعقداء المتعاقبين، على المدرسة العسكرية للمهندسين بمونبلييه، ورسائل كاسترو والوثائق الأخرى المحفوظة في أرشيف الحماية، على الوعي الذي كرس به هؤلاء الجنود أنفسهم لتدريب الشباب، والمهام الموكلة إليهم. وقد يذهل المرء، بشكل خاص، بدقة برنامج الدراسة الذي تم وضعه سنة ١٨٨٧م، والذي كان مصحوبًا برسومات تخطيطية للعمل الذي يتعين على المتدربين تنفيذه (لوحة ١).

لقد أوفت فرنسا بالتزاماتها.

الاحالات المرجعية:

(1) Sources: Archives du Protectorat de la France au Maroc. à Rabat: A 10 l1bis ; A 27 3tcr ; AA 36, lettres et télégrammes des 20 mai, 8 juin, 24 juin. 7 août, 3 octobre et 16 octobre 1885; AA 38, lettres des 14 avril et 5 août 1886; AA 41, lettre du août 1888 ; AA 42, lettre du 17 décembre 1888. - Journaux de France: Le Petit Méridional, l'Eclair, du 28 juin au 25 juillet 1885.

(٢) مستعرب، ومترجم ودبلوماسي فرنسي، قضى معظم حياته في شمال أفريقيا حيث تقلد عدة مناصب رفيعة في الجيش الفرنسي منها: المترجم الرئيسي للجيش الفرنسي الذي يحمل مع حاكم الجزائر، وشغل بعد حصوله على التقاعد منصب دبلوماسي رفيع كقنصل عام فرنسا في طرابلس من ١٨٧٩ إلى ١٨٨٤، ثم بعد ذلك وزير مفوض بطنجة وهو المنصب الذي بقي يشغله إلى حين وفاته بالمدينة المغربية في ١٩ دجنبر. (المترجم)

(٣) أُنشئت هذه المدرسة في ١٢ مايو ١٨١٤ بمرسوم ملكي من خبراء المتفجرات وعمال المناجم الذين شاركوا في حملات الثورة الفرنسية والإمبراطورية الفرنسية الأولى تحت حكم نابليون، شارك فوج الهندسة الثاني في جميع الحملات العسكرية في القرن التاسع عشر، تم حلها في ١٦ يونيو ٢٠١٠. (المترجم)

(٥) العقيد شيري (Le colonel Chery) الذي عين على رأس المدرسة العسكرية سنة ١٨٨٧م إلى غاية ١٨٩٠م، خلفا للعقيد ريوندیل (Le colonel Riondel). (المترجم)

(6) Archives du Gouvernement général de l'Algérie, carton 22.

(7) Archives du consulat de France à Larache (conservées au consulat général de Tétouan), acte de naissance de Joseph Henry, fils de Mohammed ben Abd er-Rahman el-Hajj el-Marrakchi Desalllty, dressé le 14 mai 1896. - Henri de LA MARTINIERE, **Souvenirs du Maroc**, Paris, 1919, p. 196.

(8) Général Henri SIMON, **Un officier d'Afrique: le commandant Verlet-Hanus**, Paris, 1930, p. 243.

(9) De LA MARTINIERE, **Souvenirs**, op.cit, p. 196.

المؤلف:

جاك كايي، أكاديمي فرنسي، متخصص في التاريخ المغربي خلال فترة القرن التاسع عشر، وفترة الحماية الفرنسية على المغرب.